المحاضرة الثانية :

فلسفة الحضارة عند مالك ابن نبي

تمهيد:

يعتبر مالك ابن نبي من المفكرين الجزائريين الذين طرحوا قضايا فكرية شغلت الفكر العربي والإسلامي، ولد في **1905** بقسنطينة وتوفي في **1973** من أهم كتبه، شروط النهضة، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، وجهة العالم الإسلامي... وغيرها من الكتب، يعتبر ابن نبي كما وصفه الكثير، فيلسوف الحضارة وقد كان بمثابة ابن خلدون عصرنا هذا، والسؤال الذي يطرح كيف تصور مالك ابن نبي التاريخ العربي الإسلامي؟ فهل استعاد مالك ابن نبي أطروحات ابن خلدون؟ وكيف يتصور النهضة العربية والإسلامية انطلاقا من فلسفته في الحضارة؟

١ -دورة التاريخ عند مالك ابن نبي:

يرى مالك ابن نبي أن كل حضارة، تمر بثلاثة مراحل: الميلاد ثم الأوج ثم الأفول والزوال، فكل الحضارات في العالم، تمر على هذه المراحل الثلاث، كقانون وسنة كونية، يؤكد مالك ابن نبي أن كل حضارة تنطلق في بداياتها وفي انفجارها الأول، بتأثير عامل الروح أو بتأثير الفكرة الدينية، فالروح هي التي تهب للإنسان قوة وقدرة على الدخول في التاريخ ومغالبة مختلف الأمم، ولهذا فقد قسم مالك ابن نبي الدورة الحضارية في الحضارة الإسلامية إلى ثلاثة مراحل:

١ -المرحلة الأولى (مرحلة الروح):

وهي المرحلة التي يتجه فيها الإنسان نحو تغليب منطق الروح والقيم على جميع غرائزه وميولاته الأخرى.وكبح ميوله الحيوانية، حيث تكون القيم الأخلاقية والتضحية والإيثار هي هدف وغاية حياة هذا الإنسان، ولا يمكن أن يساوم فيها. يقول مالك ابن نبي في تأثير الإسلام على العرب وكيف حولهم من قبائل بدوية ومتوحشة إلى مصدر للحضارة "ومن المعلوم أن جزيرة العرب مثلا، لم يكن بها قبل نزول القرآن، إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة. يذهب وقته هباء لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل: الإنسان والتراب والوقت، راكدة خامدة. وبعبارة أصح : مكدسة ، لا تؤدي دورا ما في التاريخ، حتى إذا تجلت الروح في غار حراء نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة، فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ، حيث ظلت قرون

طوال تحمل للعالم حضارة جديدة وتقوده إلى التمدن والرقي"(كتاب شروط النهضة).

ويقصد مالك بن نبي بالروح: الفكرة الدينية أو الفضائل الخلقية أو مبادئ عليا تحرك الإنسان نحو العمل، يضحي بذاته وبمكتسباته من أجل تحقيق المثل العليا ومن خصائص مرحلة الروح:

١ -التغلب على الغرائز.
٢ -التضحية بالذات من أجل تحقيق القيم العليا.
٣ -صمت العقل وعدم النقاش والجدال حول المبادئ العليا والفضائل السامية.
٤ -الاعتقاد الجازم بيقينية وحقيقة المبادئ الكبرى التي يؤمن بها .
٥ -تفعيل جانب الإرادة والإدراك الخلقي من أجل تغيير واقعه ونشر الفضائل الأخلاقية.

تنتهي مرحلة الروح في الحضارة الإسلامية في 38هجري عندما تحولت الخلافة إلى نظام ملكي مع الأمويين.

٢ -المرحلة الثانية (مرحلة العقل):

وهي المرحلة التي تمثل الاتجاه نحو العطاء العلمي والازدهار الفكري والفلسفي والإبداع في مختلف العلوم والفلسفات والفنون والشعر، إلا أن هذه المرحلة بالنسبة إلى مالك ابن نبي، يقل فيها تأثير الجانب الروحي على توجيه سلوك الفرد والمجتمع. ولا تبقى للفكرة الدينية وللفضائل الخلقية ذلك التأثير الوهاج الذي كانت تلعبه في المرحلة الأولى، حيث اتجهت الحضارة الإسلامية في مرحلة العقل إلى الترف وفن الشعر والموسيقى الشئ الذي أدى بانفلات الغرائز شيئا فشيئا ومع ذلك يمكن اعتيار مرحلة العقل هي موازنة بين الفضائل الخلقية ومنتجات العقل والغرائز.

٣ -المرحلة الثالثة (مرحلة الغريزة):

حيث تكف الفكرة الدينية من التأثير في الناس، كما يكف العقل من الإنتاج العلمي والفكري وتتوجه الأمة إلى إشباع غرائزها ويصبح الإنسان في هذه المرحلة مجرد مجتر لما أنتجه أسلافه كما تفقد الفكرة الدينية جاذبيتها ويتعطل تفكير العقل في الابداع يقول مالك ابن نبي " تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها تماما في مجتمع منحل يكون قد دخل نهائيا في ليل التاريخ ". وهذا لا يعني بالنسبة إلى مالك ابن نبي أن مرحلة الغريزة، يغيب فيها

الدين بالمطلق بل ما يعنيه: انه ينكمش دوره إلى مجرد إيمان فردي غير باعث على التقدم وعلى البعث الاجتماعي. يقول مالك ابن نبي في كتابه وجهة العالم الإسلامي " أما حين يصبح الإيمان إيمانا جذبيا اعني نزعة فردية فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها، إنه يصبح إيمان رهبان، يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم ومسؤولياتهم كأولئك الذين لجؤوا إلى صوامع المرابطون منذ عهد ابن خلدون ". وتبتدأ مرحلة الغريزة من 1406(موت ابن خلدون) إلى الآن ومن خصائص هذه المرحلة عند مالك ابن نبي :

١ -الاتجاه نحو استهلاك واجترار ما تم إنتاجه في الماضي أو ما يتم استيراده.

٢ -يفقد الدين والفكرة الدينية تأثيرها على الناس ولن يكون لها أي باعث وجداني واجتماعي يحرك الفرد والمجتمع نحو هذه الوجهة أو تلك. يقول مالك ابن نبي " لأن الروح، والروح وحده، هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطت، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض. وعندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة، أي عندما تكف الرياح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه، تكون نهاية (دورة) وهجرة (حضارة) إلى بقعة أخرى، تبدأ فيها دورة جديدة، طبقا لتركيب عضوي تاريخي جديد".

٣ -يتحول الدين إلى مجرد نزعات فردية صوفية أو اعتقادات سحرية تكبح العقل من إيجاد حلول للمشكلات.

٤ -لا يستطيع إنسان في المرحلة الثالثة أن يتصور أن هناك حلول لمشكل ما، ذلك لاعتقاده أن هذه المشكلات هي واقع كوني ثابت.

٥ -لا يمكن أن يكون إنسان ما بعد الموحدين(مرحلة الغريزة) صانعا للحضارة إلا إذا تم بعث الفكرة الدينية في وجدانه من جديد. يقول مالك ابن نبي " فدورة الحضارة تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة أو عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة ".

المحاضرة الثالثة:

٢ -**شروط قيام النهضة من خلال فلسفة الحضارة:**

بعدما استعرض مالك ابن نبي القوانين التي تحكم نشوء حضارة ما ومسببات سقوطها خلص إلى أن الفكرة الدينية هي التي تؤثر بشكل كبير وحاسم في نشوء أي حضارة وفي تفعيل العناصر المكونة لها: الإنسان والوقت والتراب.

صحيح أن العالم الإسلامي يملك الإنسان ويملك الوقت ويملك أيضا التراب (الأرض، المعادن، الوسائل)، ولكن هذه العناصر الثلاثة غير متفاعلة فيما بينها، فالواقع يؤكد أن هناك أعداد كبيرة من العاطلين عن العمل وجموع بشرية ليس لها ما تفعله، أما الوقت فيتم إهداره في العالم العربي في النوم وفي المقاهي وفي الهزل واللعب، أما التراب فالمنطقة العربية تزخر بخيرات كثيرة لا تستفيد منها بل يستفيد منها الغرب والسؤال الذي يطرحه ابن نبي كيف يتم تفعيل هذه العناصر الثلاثة فيما بينها حتى تصبح متفاعلة ومشكلة لحضارة؟

يجيب مالك ابن نبي عن هذا التساؤل بأن مبدأ التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة يكون من خلال: مبدأ الدين أو مبدأ الروح الذي يحول الإنسان إلى إرادة فاعلة ، تغير الأشياء من أجل تحقيق غايات سامية. ذلك أنه عندما تغيب عن المجتمع، قيم روحية كبرى وأخلاق توجيهية يفقد الإنسان بوصلته ويتيه . من هنا يمكن أن نستنتج من خلال ما سبق أن المبدأ الروحي يقوم بأدوار من أهمها:

١ -توجيه الأمة نحو مسار معين ومحدد.

٢ -توحيد الأفراد والمجموع في قيم واحدة.

٣ -يبعث في الأفراد طاقة متجددة وحيوية مندفعة نحو تحقيق الأهداف والآفاق.

يقول مالك ابن نبي " فدور الدين الاجتماعي منحصر في أنه يقوم (بتركيب) يهدف إلى تشكيل قيم، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة لحضارة، وهذا التشكيل يجعل من (الإنسان) العضوي وحدة اجتماعية، ويجعل من (الوقت) – الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر)- وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل، ومن (التراب)- الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط- مجالا مجهزا مكيفا تكييفا فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعا لظروف عملية الإنتاج. فالدين إذن هو (مركب) القيم الاجتماعية،وهو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره وحركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية.

٣ -مالك ابن نبي وتأثره بفلسفة الحضارة عند ابن خلدون:

من المؤكد أن ابن نبي قد تأثر في فلسفته بتصور ابن خلدون لقيام الدولة وسقوطها. فما يقابل المفهوم المركزي عند مالك ابن نبي بمرحلة الروح أو الفكرة الدينية أو الفضائل الخلقية، هو مفهوم ابن خلدون للعصبية وأمامنا نص يؤكد هذا التقارب:

" وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب،والناس لهم مغلوبون.

والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع، ويبقى لهم الكثير من ذلك، بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم في المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية، وإن ذهب منه ما ذهب، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول، أو على ظن من وجودها فيهم.

وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفننقوه من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء و الولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها ، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالي،ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء،حتى يتأذن الله بانقراضها، فتذهب الدولة بما حملت، فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها." مقدمة ابن خلدون.